على مشارف تبوك

أبو ذر الغفارى : لئن أموت عطشًـــا تتلقفنى السباع فى الصحراء خير من أن أتخلف عن رسول الله.

النبى : إن كنـــت لـــن أعز أهلى علىّ تخلفًا.. لقد غفر الله لك بكل خطوة ذنبًا حتى بلغتنى.. رحم الله أبا ذر، يمشـــى وحده ويموت وحده ويبعث وحده!

* * *

«الصحراء الموحشة فى الطريق إلى تبوك.. والمسلمون قد أجهدهم السير والعطش.. يمرون بموضع فيه دوم وماء «ذى المروة».. المسلمون يرجون أن ينالوا بالمكان بعض الراحة، وأن تبتل العروق بالماء بعد طول الظمأ..».

بعض المسلمين : (ينادون على الرسول) المبرك يا رسول الله.. الظل والماء..

النبى : إنها أرض زَرْع نَفرٍ.. (يستأنف وقد أمسك أحدهم بخطام ناقته) دعوها فإنها مأمورة..

«المسلمون يدعون خطام الناقة.. تمضى فى سبيلها ثم تبرك تحت دومة.. المسلمون يهللون ويكبرون، ويتسابقون عطاشى مجهدين إلى الظل والماء..».

بعض المسلمين : (وقد أحصوا من تخلفوا) يا رسول الله لقد تخلف بعضنا فى الطريق..

«يعددون أسماء من تخلفوا..».

النبى : دعوهم.. إن يك فيهم خيرًا سيلحقهم الله بكم!

* * *

«قافلة المسلمين فى طريقها بعد أن استأنفت المسير.. تمر بالحِجْر حيث كانت أرض قبيلة «ثمود» قوم النبى صالح.. المسلمون يتلمسون بئر الماء ليستقوا، ويتلمسون أهل الحجر ليدخلوا عليهم، ولكن رسول الله – عليه السلام – ينادى فى الناس للصلاة الجامعة.. يجلس عليه السلام إليهم بعد الصلاة ويقول لهم..».

النبى : لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا أنفسهم إلاّ أن تكونوا باكين أن يصيبكم ما أصابهم.. ولا تشربوا من مائها شيئًا ولا تتوضأوا منه للصلاة، وما كان من عجين عجنتموه فاعلفوه الإبل ولا تأكلوا منه شيئًا..

«المسلمون يتنادون بما أمر به الرسول عليه السلام..».

النبى : (يستأنف ناهيًا) ولا يخرجن أحد منكم الليلة إلاّ ومعه صاحب له..

المسلمون : نفعل إن شاء الله..

* * *

«بعد ليلة، والمسلمون يتهيأون لاستئناف المسير، يتفقدون بعضهم فيكتشفون اختفاء رجلين خرجا كل منهما بمفرده.. أحدهما ذهب لقضاء حاجته فلم يعد واختفى، والثانى ذهب فى طلب بعيره فاحتملته الريح بعيدًا ولم يرجع..».

النبى : (وقد أخبره المسلمون بالأمر) ألم أنهكم أن يخرج منكم أحد إلاّ ومعه صاحبه؟!!

* * *

«ببعض الطريق وقد أناخ المسلمون رواحلهم طلبًا لبعض الراحة.. بعض المسلمين يتفقدون ناقة النبى – عليه السلام – فيجدونها قد شردت وضلت، فيخرج بعضهم فى طلبها..

«برحل عمارة بن حزم الذى ذهب إلى رسول الله – عليه السلام.. زيد بن اللصيت القينقاعى وهو فى رحل عمارة الغائب عند رسول الله، زيد يغلبه نفاقه فيهمس لبعض من حوله مرجفًا عن غياب الناقة!..».

زيد بن اللصيت : أليس محمد يزعم أنه نبى ويخبركم بخبر السماء و..

جاره : (يقاطعه مستنكرًا) يزعم؟!!

زيد : هو لا يدرى أين ناقته؟!

الجار : (يردد مستنكرًا) لا يدرى أين ناقته!!

* * *

«بخباء النبى – عليه السلام – وعنده عمارة ابن حزم، يفاجأ بالنبى – عليه السلام – يقول له دون أن يأتى إليه أحد..».

النبى : إن رجلاً فى رحلك يقول هذا محمد يخبركم أنه نبى ويزعم أنه يخبركم بأمر السماء وهو لا يدرى أين ناقته، وإنى والله ما أعلم إلاّ ما علمنى الله، وقد دلنى الله عليها.. (يلتفت عليه السلام إلى بعض صحابته) وهى فى الشعب بهذا الوادى قد حبستها شجرة بزمامها، فانطلقوا حتى تأتونى بها..

«عمارة بن حزم واقف مبهوت كأن على رأسه طيرًا، مشغول الخاطر يتساءل من فى رحله الذى يقول هذا عن رسول الله، وكيف علم عليه السلام بأمره ولم يخبره أحد.. عمارة

فى انشـغاله لا يحس بعودة المسلمين بالناقة من حيث أخبرهم رسول الله، وينطلق إلى رحله يريد أن يجأ عنق من أرجف برسول الله!».

* * *

«رحـل عمارة بن حزم، يصـل ثائرًا من عند النبى – عليه السـلام – يسـأل رفاقه من الذى تقول بهذا الحديث عن رسول الله..».

أحدهم : الذى قال زيد بن اللصيت!

«عمارة يندفع إلى زيد يجأ عنقه..».

عمارة بن حزم : (لـن حوله) إن فى رحلى منافقًا داهية وما أشـعر.. (وهو يطلق زيدًا من بين يديه) اخرج أى عدو الله من رحلى فلا تصحبنى..

* * *

«بجانـب مـن مضـارب المسـلمين، بعـض المنافقيـن الذين خرجوا رجاء الغنيمة: وديعة بن ثابت، والجلاس بن سويد بن الصامت، ومُخَشِّن ابـن حُمَيِّر، وثعلبة بن حاطـب.. يتناجون فيما بينهم إرجافًا برسـول الله والمسـلمين دون أن يلتفتـوا إلى وجود عُمير بـن زوجـة الجلاس من آخر!!».

ثعلبة بن حاطب : أتحسبون جلاد بنى الأصفر كجلاد العرب بعضهم بعضًا؟!.. صدق عبد الله بن أبى بن سلول الذى قال بأمس لكأنى بهم غدًا مقرنين فى الحبال..

الجلاد بن عمرو : والله لئن كان محمد صادقًا لنحن أشر من الحمير!

عمير : (غاضبًا) فأنت شـر من الحمير.. (يستأنف مقرعًا) رسول الله صادق وأنت الكاذب!

مُخَشِّن بن حُمَير : والله لوددت أن أُقَاضَى على أن يضرب كلُّ رجلٍ منا مائة جلدة، وإننا ننفلت أن ينزل فينا قرآن لمقالتكم هذه!!

* * *

«النبـى – عليه السـلام – فـى خبائه يأتيه الخبر من السماء بما يتقوله المنافقون.. ينادى – عليه السلام – على صاحبه عمار بن ياسر..».

عمار بن ياسر : لبيك يا رسول الله..

النبى : أدرك القوم فإنهم قد احترقوا، فاسألهم عما قالوا؟

«النبى – عليه السلام – يروى لعمار بن ياسر ما قالوه..».

النبى : (لعمار مستدركًا) فإن أنكروا فقل بلى قلتم كذا وكذا..

* * *

«خبـاء النبـى – عليه السـلام – بعد بضع سـاعة، وقد عاد إليه عمار بعد أن أبلغ المنافقين بما علمه – صلى الله عليه وسـلم – من أمرهم، المنافقون يطيرون إلى خباء الرسول معتذرين..».

وديعة بن ثابت : يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب..

«النبى – عليه السـلام – يتنزل عليه الوحى فيتلو عليهم ما أوحى به الروح الأمين..».

النبى : (يتلـو) ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ (سورة التوبة الآيتان: ٦٥ - ٦٦)

الجلاس بن سويد : أحلف بالله يا رسول الله ما قلت من هذا شيئًا!

«النبـى - عليه السـلام - وقد تنـزل عليه الوحـى، يتلو عليهـم ما أوحى بـه إليه الروح الأمين..».

النبى : (يتلـو) ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ ﴾ (سورة التوبة الآية: ٧٤)

* * *

«قافلة المسلمين فى مسيرها وقد أجهدهم التعب والعطش وتسـاقط الرجال والعـير من الإجهاد.. يذكـرون للنبى تباعًا من يتخلـف من الرجال، فيقول لهم مقولته: إن يك فيهم خير فسيلحقهم الله بكم - ويذكرون له فيمن يذكرون صاحبه أبا ذر الغفارى.. يتفقدونه فلا يجدونه فى الركب، فيستهولون تخلفه عن رسول الله..».

بعض المسلمين : (للنبى) لا زلنا لا نرى أبا ذر..

آخرون : تخلف أبو ذر؟!

بعضهم : (معتذرًا عنه) أبطأ به بعيره..

النبى : دعوه، فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم ، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه..

* * *

«فى بعض الطريق إلى تبوك، وسط هجير الصحراء القاحلة، وتحت وهج الشمس المحرقة.. أبوذر الغفارى مجهدًا وحيدًا ببعيره وزاده فى الصحراء.. البعير جاث على الأرض وأبوذر يحاول أن يعينه على السير.. ولكن البعير لا يقوى على النهوض وقد أشرف على الهلاك.. وإنه لفى حيرته الشديدة والبعير يموت منه فى الصحراء ليذكر إشفاق زوجته عليه من الخروج بهذا البعير.. قد أشفقت أن يخرج بهذا البعير الضعيف الأعجف، والطريق إلى تبوك طويل وشاق.. وإنه ليذكر كيف ضاق بإشفاقها ولامها حين حذرته من أن هذا البعير لن يقوى على حمله، وقال لها: إذن أمشى!.. أبرقت هذه الكلمات فى وجدان أبى ذر وهو يرى البعير يموت.. تردد فى قلبه وكأنه يسمع بأذنيه كلمات لزوجته: إذن أمشى!.. تهاتفه نفسه: يا لهذا القيظ والظمأ ووحشة الطريق، ولكنه يردها بحزم وكأنه ينهاها عما تتحدث؟..».

أبوذر الغفارى : (كالمخاطب نفسه) ماذا تقولين يا نفس، وبأى شىء تتحدثين؟!.. أى قيظ وأى ظمأ؟! لئن أموت عطشًا تتلقفنى سباع الطير فى الصحراء، خير من أن أتخلف عن رسول الله!

«أبوذر يحمل زاده على كتفه، ويواصل السير فى مشقة ضاربًا بقدميه فى رمال الصحراء..».

* * *

«ببعض الطريق، وقد أناخ المسلمون رواحلهم تلمسًا لبعض الراحة.. يروون عطشهم، ويتفقدون الزاد، ويسقون الإبل والعير.. الرسول - عليه السلام - يمر بين المسلمين يتفقدهم ويواسيهم ويشجعهم.. ينظر بعضهم فيلمحون عند خط الأفق شبحًا قادمًا..».

بعضهم : يا رسول الله.. ها هو رجل قادم من وراء الأفق..

أحدهم : يمشى وحده، ولا بعير معه..

النبى : (وهو يرنو ببصره إلى حيث أشاروا) كن أبا ذر..

«يزداد اقتراب الشبح رويدًا رويدًا حتى بدأت تستبين ملامحه.. يتعرف عليه المسلمون فيهللون فرحين..».

المسلمون : (فرحين مهللين) يا رسول الله، هو والله أبو ذر..
هو والله أبو ذر..

النبى : (وهو يتأمل مغتبطًا فى القادم البعيد) يرحم الله أبا ذر.. يمشى وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده..

«المسلمون يكبرون، وقد تغشتهم المسرة.. ما يكاد أبوذر يصل إليهم حتى يسقط إعياءً!».

المسلمون : (لأبى ذر) ظننّاك قد تخلفت!

أبوذر : (مغالبًا إعياءه) قعد بعيرى عن السير، ثم هلك.. فاحتملت متاعى حتى لحقت بكم.

«النبى – عليه السلام – يقترب من أبى ذر، ويضع بيديه متاعه من على ظهره..».

النبى : (لأبى ذر مواسيًا) إن كنت لمن أعز أهلى علىّ تخلفًا.. لقد غفر الله لك يا أبا ذر بكل خطوة ذنبًا إلى أن بلغتنى..

«أبوذر تغرورق عيناه بالدموع، بينما يلتفت النبى عليه السلام إلى المسلمين..».

النبى : (للمسلمين) رحم الله أبا ذر، يمشى وحده ويموت وحده ويبعث وحده!

«تتصاعد تكبيرات المسلمين فرحة حامدة شاكرة بمقدم أبى ذر..».

* * *

«بعد فترة، وقد قطع المسلمون شوطًا آخر فى الطريق، وأناخوا التماسًا للراحة وبحثًا عن الظل اتقاءً لوهج الشمس المحرقة، وبحثًا عن مصادر للمياه بعد أن أخذ منهم الظمأ الذى أخذ يزداد مع الحر الشديد حتى جعل المسلمون ينحرون إبلهم ليعصروا أكراشها تلمسًا لشرب ما بها من ماء.. اجتمعت عليهم عسرة النفقة مع عسرة

المسـير مع عسرة القيظ مع عسرة الماء حتى ظنوا أنهم هالكون عطشًا فى الصحراء القاحلة.. النبى – عليه السـلام – يطوف بهم مشـجعًا ومواسيًا ومثبتًا..».

أبو بكر الصديق : يا رسول الله، إن الله عز وجل قد عودك فى الدعاء خيرًا، فادع الله تعالى لنا..

النبى : (حانيًا) أتحب ذلك؟

أبو بكر : نعم فداك أبى وأمى..

«النبـى – عليـه السـلام – يرفـع يديه إلى السـماء، ويأخذ فى الدعـاء حتى أشفق أبو بكر والمسـلمون مـن طول ضراعتـه.. وإذ هو – عليه السـلام – يدعو ربه، تمر بهم سحابـة فإذا بها تمطر وتسكب ماءها حتى شرب المسلمون وارتووا وابتلت العروق..».

«النبى – عليه السلام – يدعو بنطع فيسارع به المسـلمون إليه، فيبسطه ثم يدعو المسلمين بفضل أزوادهـم.. الرجـال يتسـابقـون كل إلـى رحله ليجىء منه بما يسـتطيع.. البعض يجىء بكف ذرة، والآخـر بكف تمـر، والآخر بكسرة.. حتى اجتمـع على النِّطْع ما أمكن للمسـلمين جمعه.. النبـى – عليه السـلام – يدعو لهـم بالبركة، فأخذوا يشربون ويأكلون حتى ارتووا وشبعوا..».

النبى : (للمسلمين) خذوا فى أوعيتكم..

«المسلمون يقبلون على ما تبقى، دون أن تفارقهم الدهشة كيف كفاهم هذا القدر اليسير وتبقى.. تتزايد دهشتهم وقد بقيت فضلة من الماء والطعام مع أنهم ما تركوا فى العسكر وعاءً إلاّ ملأوه..».

النبى : (حامدًا شاكرًا) أشهد أن لا إله إلاّ الله، وأنى عبده ورسوله.. لا يلقى الله بها عبدٌ غير شاك فيحجب عنه الجنة..

«تتصاعد تكبيرات وثناء وحمد المسلمين..».

* * *

«على مشارف تبوك، وقد عسكر المسلمون وأطل الفجر بعد ليل طويل، بينما رسول الله – عليه السلام – قد ذهب لحاجته، وكان إذا ذهب أبعد.. المؤذن يؤذن لصلاة الفجر، فيضطر عبد الرحمن بن عوف للتقدم للصلاة بالناس مخافة أن تطلع الشمس قبل قدوم رسول الله..».

«النبى عائد وعليه جبته الرومية، فيلفى المسلمين فى صلاتهم يؤمهم عبد الرحمن بن عوف وقد ركع بهم ركعة، فلما أهل عليهم النبى – عليه السلام – وهم يسبحون جعل عبد الرحمن يريد أن ينكص وراءه حتى كاد المسلمون أن يُفْتنوا.. النبى يشير إلى عبد الرحمن أن يثبت فى موضعه، ويبادر – عليه السلام – فيصلى خلفه.. ما كاد عبد الرحمن ينهى الصلاة بالمسلمين حتى تواثبوا إلى الرسول – عليه السلام

– وهو يقضـى الركعة الباقية.. فلما فرغ وسـلم جلس عليه السلام يقول لهم..».

النبى : (لعبد الرحمن والمسلمين) أحسنتم وأصبتم أن صليتم الصلاة لوقتهـا.. إنه لم يتـوف نبى حتى يؤمـه رجل صالح من أمته..

* * *

«بمضـارب المسـلمين بعـد صـلاة المغـرب والعشـاء.. النبـى – عليه السـلام – من حوله صحابته والمسلمون.. يحادثهم ويبين لهم..».

النبى : (للمسـلمين) إنكم ستأتون غـدًا إن شـاء الله تعالـى – عين «تبوك»، وإنكم لن تأتوها حتى يضحى النهار..

بعضهم : إن الماء فى هذه العين قليل..

النبى : مـن جاءها فلا يمس من مائها شـيئًا حتى آتى.. (يلتفت عليه السـلام إلى بعـض الصحابة مـن حولـه) نادوا فى الناس أن لا يسبقنى أحد إلى الماء..

«ينطلق الصحابـة ينـادون بين المسـلمين بما أمر به رسول الله..».

* * *

«ضحـى اليوم التالى على عـين «تبوك»، وقد اسـتاء رسول الله من أن البعض قد سبق إلى الماء ولم يطع ما أمر عليه السـلام به.. النبى – عليه السـلام – يلومهم ويعاتبهم، ثم يتناول بعضًا من المـاء فيتوضأ به، فما يـكاد يفعل حتى تفجرت

العين بماء كثير فوار، والمسلمون يستسقون وقد تعلقت قلوبهم بالمشهد الذى يرون..».

النبى : (ينظر إلى صاحبه معاذ بن جبل) يوشك يامعاذ إنْ طالت بك حياة أن ترى ما ها هنا قد ملئ جنانًا..

«النبى - عليه السلام - يتفقد المكان، ويختار موضعًا ليجعله مسجدًا للمسلمين.. يرفع بيده حجرًا ويضعه ليكون قبلة المسجد ويومئ بيده إلى الحجر وما يليه، فيصطف الناس من ورائه، ويصلى بهم صلاة الظهر.. ما يكاد يفرغ حتى يلتفت إلى المسلمين فيشير إلى الشمال والجنوب تباعًا ويقول لهم..».

النبى : (وهو يشير للشمال ثم الجنوب) ما ها هنا شام، وما ها هنا يمن.. (يجلس عليه السلام وقد التف المسلمون والصحابة حوله) ألا أخبركم بخير الناس وشر الناس؟

المسلمون : بلى يا رسول الله..

النبى : إن من خير الناس رجلاً يحمل فى سبيل الله على ظهر فرسه أو على ظهر بعيره أو على قدميه حتى يأتيه الموت، وإن من شر الناس رجلاً فاجرًا جريئًا يقرأ كتاب الله لا يرعوى إلى شىء منه..

* * *

«تبوك فى صباح اليوم التالى، بعد الصلاة، النبى - عليه السلام - يجلس فيجلس إليه الصحابة والمسلمون، فجعل يعظهم ويوصيهم ويقول لهم:

النبى : «يـا أيها الناس أما بعد فإن أصـدق الحديث كتاب الله، وأوثق العُرَى كلمة التقوى، وخير الملل ملة إبراهيم، وخير السـنن سنة محمد، وأشـرف الحديث ذكر الله، وأحسن القصص فى هذا القرآن، هذا وخير الأمور عوازمها، وشـر الأمور محدثاتها وأحسـن الهدى هدى الأنبياء، وأشـرف الموت قتل الشـهداء، وأعمـى العمى الضلالة بعد الهدى، وخير الأعمال مـا نفع، وخير الهدى ما اتبع، وشر العمى عمـى القلب، واليد العليا خير من اليد السـفلى، وما قلّ وكفـى خير مما كثُر وألْهَى، وشـر المعـذرة حين يَحْضُر الموت، وشـر النَّدامة يـوم القيامة، ومن الناس من لا يأتى الجمعـة إلاّ دُبرًا، ومنهم مـن لا يذكر الله إلا هُجْرًا، ومن أعظم الخطايا اللسـان الكذاب، وخير الغنى غنى النفس، وخير الـزاد التقوى، ورأس الحكمة مخافة الله عز وجل، وخـير ما وَقَرَ فـى القلوب اليقين، والارتيـاب من الكفر، والنِّياحـة من أعمال الجاهليـة، والغلول من جمر جهنم، والسُّـكُرْكَة (شـرب الـذرة المُخمر) من النار، والشـعر من إبليـس، والخمر جماع الإثم، والنسـاء حِبَالة الشـيطان، والشـباب شُعْبَة من الجنون، وشـرّ المكاسب كَسْبُ الرِّبا، وشـر المأكل مال اليتيم، والسعيد من وُعِظَ بغيره، والشقى من شَقِى فِى بَطْن أُمه، وإنما يصير أحدكم إلى موضع أربعة أذرع، والأمـر إلى الآخـرة، وملاك العمل خواتمـه، وشـر الرؤيا رؤيا الكذب، وكل ما هو آت قريب، وسباب المؤمن فسـوق، وقتال المؤمن كفر، وأكل لحمه من معصية الله عز وجل، وحرمة ماله كحرمة دَمِه،

ومن يَتأَلَّ على الله يكَذِّبه، ومن يَغْفِرْ يُغْفَرْ له، ومن يَعْفُ يُعفَ عنه، ومن يكظـم الغيظ يأجره الله، ومن يصبر على الرَّزيّة يعوضه الله، ومن يبتغ السُّـمعة يُسمِّع الله به، ومن يصبرٍ يضعِّف الله له، ومن يعص الله يعذبه الله. اللهم اغفر لى ولأمتى.. اللهم اغفر لى ولأمتى.. اللهم اغفر لى ولأمتى - أستغفر الله لى ولكم».

* * *